وخطير ، الخ ... » ، وفي الأخير ، هناك الاستنتاج : « لأنه ربما كتب تحت تأثير جو معين » ، والذي يبرر وفي الوقت نفسه ينقض النقطتين السابقتين . والعملية هنا ـ حتى ولو سلمنا بهذه الاحكام التقييمية المطلقة كفرضيات يريد الناقد اثباتها ـ لا تجري على أساس الثالوث العلمي المنبع : طريحة ـ نقيضة ـ نتيجة ، ولكن على اساس ميكانيكي يبقى اعتماده أساسياً على الاستنتاجية المشاعرية وذبذباتها المتوقفة على حرارة تلك المشاعر في انفعالها أو برودة تلك المشاعر في انكماشها وانحسارها ، والدكتور حسام نفسه « يعترف » بذلك عندما يقول في خاتمته :

« أستطيع أن أخمن ان قراءة سريعة للدراسة الحالية يمكن أن تضع القارىء في حيرة من أمر موقف الناقد منها ، فهو تارة مادح وتارة قادح » .

وهو يهرب من « اعترافه » هذا ومن « قدحه » على الخصوص بنقضه في الحال عندما يثني على الرواية « كمحاولة جريئة ربما كانت الأولى من نوعها في ارتياد جوهر التناقض الذي شغل المنطقة العربية والعالم منذ مطلع هذا القرن » (الاتجاه المشاعري التهويلي دوماً) وسرعان ما ينقض النقض بنقض آخر (فليغفر لي القارىء !) عندما ينفي بشكل تقريري في الرواية ما يعكس كل « مواهبي التي أظهرتها أعمال فنية أخرى نشرتها قبل هذه المغامرة وبعدها » !

الاتجاه التركيبي

وأجدني ، قبل أن أذهب الى الناحية الشكلية لنقد الدكتور حسام الخطيب ، مضطراً لتوضيح الاتجاه « التركيبي » المهيمن على رؤيته . فهو ، حسب الاستشهادات السابقة ، يؤكد في « النقيض » على سلامة مضمونها ـ على الأقل بشكل مؤقت لأنه لا يلبث أن ينقض هذه « السلامة » بسبب « حشد » المادتين الاخبارية والتحليلية مثلما يقول ـ وفي الوقت نفسه يؤكد على عدم استطاعة « النقيض » أن تكون « تركيباً مصقولاً جذاباً » ، أي على « عدم سلامة » شكلها ـ على الأقل بشكل مؤقت أيضاً لأنه لا يلبث أن ينقض هذا الاستخلاص تحت فصل « الرواية فناً » ، ويعطي لذلك بعض التبرير ـ فالجمع التوفيقي بين الشكل والمضمون أو الفصل بينهما لا يجريان الا حسب ذاك الاساس التركيبي « النقضي » السابق : ضرب الشكل بالمضمون أو الشكل بالشكل أو المضمون بالمضمون ، واللجوء الى التبرير الشكلي ، كما في حالة ما أن يكون التركيب « خشناً ولا مصقولاً » : خشناً لأنه « لم يكن سهلاً ابراز طرفي النقيض دون تبني تقنية معقدة » مثلما يقول الدكتور حسام ، ولا مصقولاً ، « لأنه ربما كتبت [الرواية] تحت تأثير جو معين » . (وأنا أتساءل حالاً : أي عمل ابداعي لم يكتب تحت تأثير جو معين ؟) ثم لا يلبث أن ينقض التبرير الشكلي بالتبرير المضموني : « ما أكثر ما تقوله الرواية ، وما أشد خصبه وتنوعه وتعدده ، انها رواية الصراع بين العربي الفلسطيني والصهيوني اليهودي ، إنها لمحاولة جريئة لاستيعاب عناصر هذا الصراع شاقولياً وأفقياً ولم أطرافه المستعصية عن اللم ، ومن أية زاوية ؟ من زاوية المقارنة الدقيقة بين مفهومين للمشكلة ، وموقفين نفسيين منها ، ومسلكين عمليين لها ، الخ .. » .

هنا ، يمكنني القول : إن الرؤية « التركيبية » التي يتسلح بها الدكتور حسام منهجاً هي التي أوقعته في « مطب » الابتعاد عن الرؤية الجدلية : نعم أقول الرؤية الجدلية التي كتبت بها الرواية على كل مستوياتها ، سواء أكانت هذه المستويات ما بين الزمان والمكان أو ما بين الشكل والمضمون أو ما بين الشكل والشكل ـ اذا استطعت القول ـ وهذا ما غصنا في أعماق المصطلحات والاستعارات والفصول وعلاقاتها ، أو ما بين المضمون والمضمون ، وهذا ما غصنا في تعددية زوايا الرؤية الاجتماعية والانسانية والفكرية المتمثلة للصراعات الدائرة ما بين الابطال وما بين الابطال والواقع الاجتماعي . ان ميكانيكية الرؤية لدى الناقد تبقى هي هي : أي أنها تبقى ميكانيكية حتى لو وضعنا تحت عدستها عملاً جدلياً ، وهي لا تستطيع ، بل انها تعجز : لأن عجزها جزء من تكوينها ، على التأثر والتأثير في العمل الابداعي نقداً وتشريحاً ، حتى لو كان المقصود في التشريح تجريحاً.

وأنا ، في هذا المقام ، وبالنسبة لطاقتي الجمالية والرؤيوية ، في زمن كتابتي هذه الرواية ، وبسبب هذا الزمن أيضاً ذي الخصائص المحددة ، لا أدعي أنني قدمت عملاً ابداعياً جدلياً « كاملاً » . ولكني ، على العكس ، أدعي بوجود الحد الأدنى منه في « النقيض » . وحتى لو حاول الدكتور حسام وضع يده على هذا الحد الأدنى من جدل الرؤية والفن في روايتي ، فسوف ينقضه حالاً بنظرته « التركيبية »